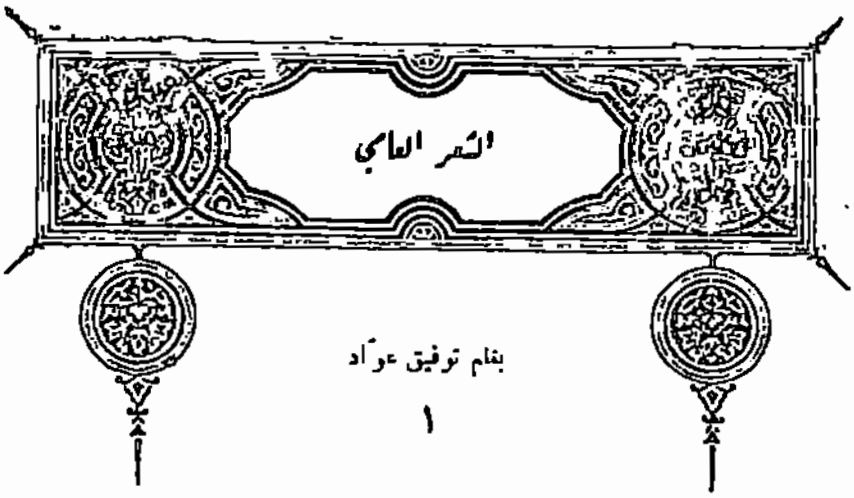

بقلم توفيق عوّاد

١

من هو الشاعر العامي ؟

بعيداً عن معاجم اللغة ومجموعات القوافي ، بعيداً عن الاقلام والمحابر ، بين صفوة من الاصدقاء وأمام كاس من العرَق ، يجلس الشاعر العامي ، واضعاً رأسه على كفه ، يستوحي قصائده الفكر والعاطفة مجردين عن المؤثرات المصطنعة ، وينشدها بصوته الشجي على سامعيه ، وقد ارتسمت عليه ، في ذبول اجفانه ، وتجعدات جبينه وكل حركة وسكنة من جوارحه ، القوّة الخفيّة التي تدفعه من داخل لاخراج ما يجيش في نفسه الى عالم الوجود : ذكر لمجالس الانس ، عتاب الى الايام الغادرة ، مناجاة للحبيب النائي ، مداعبة للندماء . تلك هي المواضيع التي تبعثها الشاعرية الفطرية فيه ، فيندفع في معالجتها واحداً فواحداً ، او يخلط بينها اذا شاء موقعاً نبراته على تصفيق الايدي ونقرات الدف ، حتى اذا اكمل بيته رفع الكاس الى شفتيه المرتعشتين ، يزيد نشوته نشوة ، في حين ترد عليه الجوقة بملء الحناجر هازجين متوسّلين . فيتجاوب صدى هتافهم بين جدران البيت الدافئ ان كانوا حول النار في ليلة من ليالي الشتاء ، أو يسير به النسيم من وادٍ الى وادٍ ان كانوا على ربوة بين الكروم والصنوبر ، مساء يوم من ايام الصيف الجميل البهيج !

نشأته وتاريخه

الشعر فطري في الانسانية ، عرفته منذ عهدها بالكلام الواضح . كل الامم

في كل العصور احتاجت ان تعبر عن افكار وعواطف خاصة تعبيرًا جميلًا ، اجمل من الذي تستعمله في الاحاديث. وجمال هذا التعبير يتمّ بالايقاع ، كما هو معلوم . فحيثما كان الفكر الحي ، والعاطفة الصادقة ، والنغمة العذبة ، كان الشعر ، سواء في ذلك ادوات التعبير ، ان كانت اللغة العربيـة أو غيرها من لغات العالم.

اذا صحّ ما قلنا ، فتاريخ الشعر العامي يرجع الى العصر الذي كانت فيه لغة عامية .وأريد باللغة العامية اللهجة التي يلفظ بها الشعب لغته الفصيحة ، مهملًا فيها تأثير بعض القواعد والاصطلاحات ، وهي تتكوّن او تظهر حين تتضعضع اللغة الفصيحة بسبب كرور الايام من جهة ، ودخول اللغات الاعجمية عليها من جهة اخرى . وقد برزت هذه الظاهرة في اللغة العربية قبيل العصر العباسي ، اذ تفرّق ابناؤها في شتى الاقطار واحتكوا بمختلف الشعوب ، فتعدّدت اللهجـات فيها وكثر الدخيل من الالفاظ.

يقول ابن خلدون في مقدمته[1] :

« لاهل المشرق وامصاره لغة غير لغة اهل المغرب وامصاره ، وتخالفها ايضاً لغة اهل الاندلس وامصاره ... ثم لما كان الشعر موجودًا بالطبع في اهل كل لسان ... لم يُعجز بفقدان لغة واحدة.»

ثم يقول :

«أما العرب ، اهل هذا الجيل ، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطوّلات... فاهل امصار المغرب من العرب يسمّون هـذه القصائد « بالاصمعيات » نسبـةً الى الاصمعي راوية العرب في اشعارهم . واهل المشرق من العرب يسمون هـذا النوع من الشعر « بالبدوي » وربما يلحنون فيه الحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ، ثم يغنون به ويسمّون الغناء به باسم « الحوراني » نسبةً الى حوران.»

ويردف بقوله :

« لهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول ، واساليب الشعر

(١) الفصل الحادي والخمسون : في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

وفنونه موجودة في اشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب في اواخر الكلم فان كلماتهم موقوفة الآخر.»

ثم يقول في الفصل نفسه :

« لما شاع فن التوشيح في الاندلس ، واخذ به الجمهور لسلاسته وتنسيق كلامه وترجيع اجزائه نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا اعراباً ، واستحدثوه فناً سموه « بالزجل ».»

والحق ان الموشحات الاندلسية كان لها تأثير عظيم بيّن في نشأة الشعر العامي وانتشاره . ونحن ناقلون بعض ابيات يكاد لا يعرف سامعها اهي شعر فصيح أم شعر عامي . ولعلها مثال صادق للدور الانتقالي الذي مرّ به الشعر من الفصيح الى العامي :

ورذاذٍ دقّ يترلْ وشعاع الشمسْ يضربْ
فترى الواحدْ يفضّضْ وترى الآخرْ يذهّبْ
والنباتْ يشربْ ويسكرْ والطيورْ ترقصْ وتطربْ
والغصونْ تعطفْ علينا ثم تستحي وتغربْ

ان في هذه الابيات خطوة نحو الشعر العامي واسعة ، ولكن الحال لم تبق كذلك طويلاً بل تكوّن شعر عامي صرف يبعد البعد كله عن الشعر الفصيح نجد منه شيئاً كثيراً في مقدمة ابن خلدون نفسها . نطالعه ، ولكن الوزن لا يستقيم لنا في انشاده ولا نحن نفهمه حقّ الفهم ، لان معظم كلماته تابعة للهجات اولئك القوم ، ولا مرجع لدينا يوقفنا على معناها ولا على كيفية لفظها من حيث الحركات والسكون.

... ولقد كان للشعر العامي في ذلك العهد انتشار وازدهار ، مما يجعلنا نعتقد انه كان ظاهرة أدبية قوية . ذكر ابن خلدون ، من الذين نظموا فيه ، اسماء عديدة وقال ان اصحابها أتوا منه بالبدائع . غير انه يفضل عليهم جميعاً أبا بكر ابن قزمان († سنة ١١٦٠). قال احدهم : « رأيتُ ازجاله مروية في بغداد اكثر مما رأيتها بحواضر المغرب.» يريد ان يبين مكانة شعره وشهرته .

وكان في عصره شاعر آخر كبير اسمه عبدالله بن الحاج المعروف بالمدغليس . كان الاندلسيون يقولون : ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء والمدغليس بمنزلة ابي تمام . يريدون بذلك ان الاول كان يعنى بالمعاني اكثر من عنايته بالعبارات ، وان الثاني يفعل العكس .

هذا ما يقوله ابن خلدون . وأما تاريخ الشعر العامي بعد ابن خلدون فما عُني احد بتدوينه . ولكن عدم تدوينه لا ينفي وجوده . فهو قد وجد من دون شك .

وللاستاذ عيسى افندي اسكندر المعلوف كتاب لا يزال مخطوطاً يقع في ٥٢٢ صفحة كبيرة اسمه « نيل المتمنّى في فن المعنى » . تناول فيه مؤلفه تاريخ الشعر العامي ، وقدّم له مقدّمة قيّمة درسه فيها درساً ضافياً احاطه من جميع نواحيه . ولقد تكرم يوماً ، اثناء زيارتنا له في منزله ، بان تلا علينا بعض نبذات من هذا الكتاب ، فاذا هو اوفى ما كُتب في الشعر العامي حتى عصرنا . قال لنا انه اخذ معلوماته الخطيرة من بطون مخطوطات كثيرة محفوظة في مكتبته . وهذا الكتاب يحتوي على مختارات جميلة متنوّعة لاقدم الشعراء العاميين في مصر وسورية والعراق وسائر البلاد العربية . قال : من الذين اشتهروا في اوائل القرن التاسع عشر ابو الكباتر ، والشريف حسين باشا عون ، وناصيف نصار الحاوي ، ونمر العدوان البدوي ، وجبرائيل الشدياق ، وبولس البكاسيني ، وبو علي طبوش . ولديه قصائد من نظم ابن نباتة الشاعر المصري ، ومن نظم صفي الدين الحلي وغيرهما ، مما يدلنا دلالة واضحة ان الشعر العامي لم يُهجر قط بل ظل مرافقاً الاجيال واحداً فواحداً حتى جيلنا هذا .

رُوي عن فخر الدين المعني الكبير ان يوسف باشا سيفا عيّره بقصره ، فانشد في ذلك ابياتاً ، وهو ذاهب للانتقام منه ومحاصرته في قلعة الحصن . ولعل الرواية افسدت فيها قليلاً ، وهذه هي :

غنا قصار بعيون المدر كبار
انتو خشب حور نحنا للخشب منشار
وحق طيبا وزمزم والنبي المختار

ما بمرّ الدير (١ إلّا بن حجر عكارْ

وفي مخطوطة للاستاذ المعلوف قصيدة لا يُعرف ناظمها . يظهر انها من عهد الامير بشير الكبير كما ينبئنا التاريخ المذكور في اول ابياتها وهو ١٢٠٦ للهجرة ، وكما تنبئنا اسماء العلم المذكورة فيها . في هذه القصيدة يصف الشاعر مجاعة اصابت البلاد في تلك الايام ، وكان له منها نصيب وافر دفعه الى بثّ شكواه . وقد نشرها مع بعض الحواشي الاستاذ المعلوف في « المشرق » (١٨ [١٩٢٠] : ٣٣٩) وهو يرى ان ناظمها لبناني مسيحي من دير القمر او من جوارها . ومما جاء فيها :

سنة ميتين الف وستمه اخدت مدّ الحنطه بسته (٢
وكان زمان جدي وستي باعوا بزلطه سبع مدادْ

الى ان يقول :

كان عندي حالوش (٣ وناس وطنجرتين ودست نحاس
بيت الكل من الافلاس حتى الفرشه والليباد
اشتريت لولادي رطل طحين فول وكرمشه ورزّين
بصريات خمسة وستين وعجّناه فشي ما زاد
وخبزناه بلا تنور وحطّينا عليه ناطور
ما كفّانا نص فطور وكان غايبنا ابني «عمادْ»

وقال البدوي من رثاء زوجته « واضحه » :

فاض الغرامْ وفاضت العين بدماعْ من فوق صحن الخد سالت سواقيه
واسيت انا على الشوق لدّاع وسيّحت قلبي من الهمّ سواليه
قلبي حزين وسافراتهم لوّاع والجسر ما يخرق الا رجل واطيه

انواعه وفنونه

قال الابشيهي في المستطرف اثناء كلامه عن الشعر العامي : « والفنون السبعة المذكورة عند الناس هي الشعر القريض (ولعله يريد القرادي) ، والموشح ،

١) دير القمر ٢) اي بستّ مصاري ٣) الحالوش : منجل الحصاد

والـدوبيت ، والمواليات ، والزجل ، والكان كان ، والقومـا ، وبينهم من جعل الحماق من السبعة ». هذه هي الفنون التي نظم فيها القدماء. واننا لذاكرون امثلة على البعض منها فيما يلي :

المواليا — قيل ان اول من تكلم بهذا النوع بعض اتباع البرامكة بعد نكبتهم . كانوا ينوحون عليهم بابيـات من الشعر ، ويرددون في آخر كل بيت يا « مواليا » . فعرف بهذا الاسم وقيل ايضاً غير ذلك . من اقدم مـا روى هذان البيتان :

يـا دار ابن ملوك الارض اين الفرسْ ابن الذين حموهـا بالقنـا والترسْ
قالت تراهم رمم تحت الاراضي الدرسْ سكوت وبعد الفصاحه السنتهم خرسْ

القوما — واصل تسميته بهذا الاسم من قول المغنين بعضهم لبعض ! « قوما نُسجر قوما » . في هـذا الباب بيتان ايضاً يرويان عن لسان ولد انشدهمـا الخليفة ، فاعجب الخليفة بهما جدّ الاعجاب فامر له بصلة كبيرة :

يا سيد السادات لـك بالكرم عادات
انـا ابن بو نقطـه تعيش ' أويـا مات

وهنا ننتقل الى الشعر العامي اللبناني فنقول :

يطلق على الشعر العامي اللبناني اسم « معنّى ».

قال الاستـاذ عيسى اسكندر المعلوف : « والـذي اراه في تسميته انه سمي باسم قائله لانه شكوى العاشق الحزين الـذي يـسوقه المغنّى فيكون معناه لسان المغنّى . » وهو قول لا يبعد ان يكون الحقيقة او ما يقرب منها. والمغنّى ينقسم الى ثلاثة اقسام اولية : المطلع ، والقصيد ، والقرادي.

يلتزم في المطلع رويّ واحد في كل من الاشطر الثلاثة الاولى ، والرابع قافية تردد في كل مقطع ، حتى آخر القصيدة. (والمقطع كناية عن اربعة اشطر) ما عدا المقطع الاول ، فان للشطرين الاولين ، وللشطر الرابع رويٌ واحـد هو الرويّ المردّد بعد ذلـك في كل مقطع ، والشطر الثالث بدون رويّ . كما يظهر ذلك في المثال الآتي . مطلع من نظم موريس بشاره :

بعدك ضناني يا وليف وهدّني وكل فرقة يوم اصعب من سني
قلبي عملنا بقصد تاجبلي الهموم يا عملنا عن طريق الولدني
قلبي عملنا بقصد تاجبلي الهموم تكب بدال المصرفي كابي سموم
ما دام عارف ان حبك ما يدوم ما كان لازم جواك شبكتني

القصيد - يلتزم فيه عادة رويّ في الصدر ورويّ في العجز ، ويتبعان في القصيدة من اولها الى آخرها كما يظهر ذلك في المثال الاتي : قصيد لمنصور شاهين الغريب :

عندي أماته ثابته طول الزمان الله يشهد والعوالم عالمين
لولا الامل في نيل منديل الامان ما كنت للتنكيت اطلقت الهمين
كم غالياً بنباع في ارخص ثمن والرخيص بروح في سعر الثمن
لما رأينا النسر في وكرو كمّن خفنا الجنادب ان يطيرو هايصين

. . .

وقد يجيء كالقصيدة في اللغة الفصحى فيلتزم رويٌّ واحد في آخر العجز كقول جرجس بشاره :

يا نسيم الشرق غو الغرب سيرْ ودّي سلامي بالعجل ودّيلِ
سلمْ على خلّانا واصحابنا واهدي سلامي للوليف هديهْ
اشرق علينا بدر يا محلا ضياه عجل غيابو وما فرحنا فيه

وهكذا الى آخر القصيدة. وقد يتصرف فيه ايضاً القوالون على انواع شتى غير هذين النوعين

اما القرادي (ولعله مصحف عن قراضي من القريض وهو الشعر) فهو باب واسع جداً للتفنن ، ذكر خليل سمعان القسالي من فنونه اثنين وعشرين نوعاً . وذلك في فصل من ديوانه معنون « بالكنز الخفي » اثناء محاورة بينه وبين ابنه اسعد اذ قال :

غيرْ ممكنْ اعطي شهادي تواشهرْ اسمك بين الناسْ
ما لم تشرحْ قرّادي تنين وعشرين موضه عالْ

فشرح له ابنه كل هذه الموض . منها المسجّع ، والمطبّق ، والموشّح ، والقلّاب ، والشلوقي ، وكرج الحجل ، والكناري ، وغيرها . مثال على الشلوقيّ :

خودْ جوابْ ، صحيح سرْ وجولْ وباحْ ، بطيبْ وقلْ
وجودْ بخطابْ ، مليحْ وقرْ وقولْ وشراحْ ، وغيبْ وهلْ
قصودْ الثابْ ، وصيحْ وكرْ وصولْ ورباحْ ، وجيبْ أكلْ
سودْ وحجابْ ، الريحْ وفرْ بطولْ الراحْ ، وطيبْ البالْ

وهو فنّ صعب المنال اذ ان كل كلمة فيه قافية .

وهناك نوع آخر اضافي لان القوالين لا ينظمون فيه كثيراً لما فيه من التحذلق اللفظي وهو العتابا كقول شديد غصن :

لمّا زرت دار النير شكيت كأنك ومع ضمن القلب شكيت
عليكم لاله العرش شكيت حتى يوقفك عند الحساب

وللقوالين باب يحبّ طرقه منهم الملتزمون بالكتابة والقراءة وهو ما يدعونه « الالفية » ، نسبةً الى « الالف » اول حرف من حروف الهجاء . يلتزمون فيه في كل كلمة من البيت الواحد ان يكون أولها ألفاً . وفي البيت الثاني أو المقطع الثاني الباء والثالث التاء وهلم جرا . وقد يلتزمون ذلك في اول وآخر كلمة فقط من كل شطر ، وقد ينحون ايضاً غير هذا النحو مما لا مجال لاستيعابه . كالذي جاء في ألفية خليل سمعان في الجزء الاول من ديوانه على حرف الباء وقد التزم فيها ان تكون الكلمة الاولى مبتدأة بباء والكلمة الاخيرة منتهية بباء ، من الشطر الاول والثاني قال فيما قال :

« بولاد مانبي مسا يحدو غير شيب البحر ما بتوكرو بزرة تراب »

(للبحث صلة)